(البحوث والدراسات)

الطعام وشجونه التراثية

د. عبد الكريم اليافي(*)

الطعام من أهم الأعمال الإنسانية الضرورية كالماء والشراب. وهو ملازم لكل الأنواع الحية، ولمكانته لدى الإنسان حفلت به الكتب اللغوية والأدبية والفكرية والدينية. أمثال هذه البحوث واسعة ومستفيضة. ولكننا نعالج في بحثنا هذا الأمور التالية:

١- كليات أنواع الطعام.

٢- آداب الطعام.

٣- أطعمة الدعوات.

٤- بعض المآدب التي كانت تجري في عهد الحضارة العباسية وما يتعلق بها من تنظيم.

٥- يلحق بذلك ملاحظات وأخبار مسلية ومفيدة.

جاء في فقه اللغة للثعالبي:

طعام الضيف القِرى، طعام الدعوة المأدُبة، طعام الزائر التُّحفة، طعام الإملاك الشّندخيّة(١)، طعام العرس الوليمة، طعام الولادة الخُرس، وعند حلق

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(1) الشندخيّة: شندخ الرجل عمل الشندخ وهو طعام يصنعه بوجه العموم من اقتنى دارًا أو قدم من سفر أو وجد ضالته. والشِّنداخ والشُّنداخ والشنداخي والشندخيّة للطعام المذكور.

رأس المولود العقيقة، طعام الختان العذيرة، طعام المأتم الوضيمة، طعام القادم من سفر النَّقِيْعة، طعام البناء الوكيرة، طعام المتعلل قبل الغداء السلفة واللُّهنة، طعام المستعجِل قبل أوان الغداء العُجالة، طعام الكرامة (أي التكريم) القَفِيّ[٢]، والزَّلّة[٣].

وقد نظمها قاضي القضاة صدر الدين بن العز الحنفي فقال:

أسامي الطعامِ اثنانِ من بعد عشْرةٍ سأسرُدُها مَقرونةً ببيانِ
وليمةُ عُرسٍ ثم خُرْس ولادةٍ عقيقة مولود وكيرة بانِ
وضيمةُ ذي موتٍ نقيعةُ قادمٍ عذيرٌ أو اعذارٌ ليومِ خِتان
ومأدبةُ الخِلاّن لا سببٌ لها حِذاق صبيٍّ يومَ خَتْمِ قُران
وعاشِرُها في النظم تحفة زائر قِرى الضيف مع نُزْلٍ له بأمان

يرافق الدين الحنيف الإنسان في جميع أحواله، ليصل به إلى الكمال في السجايا والمعاملات، حتى يغدو كالكوكب الدريّ بين الناس، وحتى يجتذب بنوره مَن حوله من البشر، ويكون أسوةً صالحة لهم ومثالاً طيبًا في السلوك والأخلاق السامية. ولهذا لا غرابة أن نجد المؤلِّفين يعقدون كتبًا متعددة في جميع مآرب الإنسان وحاجاته ومساعيه. ومن أمثلة ذلك أن الإمام أبا حامد الغزالي يعقد في كتابه الكبير «إحياء علوم الدين» فصلاً قيّمًا في آداب الطعام، إلى جانب فصول أخرى في السلوك والعادات ومرافق الحياة. يقول في مقدمة كتاب آداب الأكل:

(2) القفيّ: رجل مَقْفِيّ ومُقْفًى أي مؤثر مكرم.

(3) الزَّلّة: الصنيعة. هو اسم لما تحمله من مائدة صديقك وقريبك.

«وها نحن نرشد إلى وظائف الدين في الأكل، فرائضِها وسننها وآدابها ومروءاتها وهيئاتها في أربعة أبواب وفصل في آخرها وهي:

الباب الأول فيما لابد للآكل من مراعاته وإن انفرد بالأكل.

الباب الثاني فيما يزيد من الآداب بسبب الاجتماع على الأكل.

الباب الثالث فيما يخص تقديم الطعام إلى الإخوان الزائرين.

الباب الرابع فيما يخص الدعوة والضيافة وأشباهها.

أما الفصل الختامي فهو يجمع آدابًا ومناهيَ طبية وشرعية متفرقة».

ولاشك أن قارئ هذا العرض الوجيز في بحثنا سوف ينصرف إلى كتاب الإمام الغزالي ويُمْعن فيه ليتزوّد من منافعه وفوائده. ومع ذلك نؤثر أن نلخِّص ما استطعنا هذه الآداب.

ففي **الباب الأول** فيما لابد للفرد منه ثلاثة أقسام:

القسم الأول: في الآداب التي تتقدم الأكل وهي سبعة، منها أن يكون الطعام حلالاً في ذاته طيبًا في جهة مكسبه، موافقًا للسنة والورع، لم يُكتسب بسبب مكروه في الشرع.

ومنها غسل اليد، لأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال، وغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة، ولأن الأكل بقصد الاستعانة على الدين عبادة، فهو جدير بأن يُقدّم عليه ما يجري منه مجرى الطهارة من الصلاة. وأن يتقوى على طاعة الله ويرضى بالموجود من الرزق.

ومنها في ذلك الزمن أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض، ولا شك أن الأحوال تتغير بتفاوت الأزمان والأجيال. والمراد هنا

التواضع وتذكرة النفس بالسفر، سفر الآخرة. وهنالك أمور أُحدثت بعد رسول الله ﷺ مفيدة وليس كل ما أُبدع منهيًّا عنه.

القسم الثاني: في آداب حالة الآكل: وهو أن يبدأ بالبسملة في أوله والحمد لله في آخره، ويأكل باليمنى، ويبدأ بالملح ويختم به، ويصغّر اللقمة ويجوّد مضغها. وما لم يبتلعها لم يمد اليد إلى الأخرى فإن ذلك عجلة في الأكل، وألا يذمّ مأكولاً كان، إذا أعجبه أكله وإلا تركه. وأن يأكل مما يليه ولا ينفخ في الطعام الحار، ويأكل من التمر وترًا، وإذا أكل تمرًا لا يجمع بين التمر والنوى في طبق، ولا يجمع في كفّه، وكذا ما له عجم وتفل، وألا يأكل من ذروة القصعة ولا من وسط الطعام، بل يأكل من استدارة الرغيف إذا قل الخبز. وألا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غصّ بلقمة أو صدق عطشه، ويشرب من الكوز مصًا لا عبًّا، ولا يشرب قائمًا ولا مضطجعًا.

القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام: وهو أن يمسك قبل الشبع، ويلتقط فتات الطعام، ولا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولاً. فإن أكل طعامَ الغير فليدْع له، وليقل اللهم كثِّر خيره وبارك له فيما رزقته، واجعلنا وإياه من الشاكرين. وإن أفطر عند قوم فليقل، أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلّت عليكم الملائكة. ولابد من أن يغسل يديه.

الباب الثاني: فيما يزيد بسبب الاجتماع والمشاركة في الأكل:

وهي سبعة، الأول ألاّ يبتدئ بالطعام ومعه من يستحق التقديم لكبر سن أو زيادة فضل، إلا أن يكون هو المتبوع والمقتدى، فحينئذ ينبغي ألا يطول عليه الانتظار إذا اشرأبُّوا للأكل واجتمعوا له.

الثاني ألا يسكتوا على الطعام، ولكن يتكلمون بالمعروف ويتحدثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها.

الثالث أن يَرفق برفيقه في القصعة، فلا يقصد أن يأكل زيادةً على ما يأكله بل ينبغي أن يقصد الإيثار.

الرابع قيل: أحسن الآكلين أكلاً من لا يُحوج صاحبه إلى أن يتفقده في الأكل، ولا ينبغي أن يدع شيئًا مما يشتهيه لأجل نظر الغير إليه، بل يجري على المعتاد.

الخامس في غسل اليد في الطست.

السادس ألا ينظر إلى أصحابه ولا يراقب أكلهم فيستحون، بل يغض بصره عنهم ويشتغل بنفسه، ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده، بل يمد اليد ويقبضها ويتناول قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا.

السابع ألا يفعل ما يستقذره غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه.

الباب الثالث في آداب تقديم الطعام إلى الإخوة الزائرين:

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير، وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون: الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق.

أما آداب تقديم الطعام، فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام. أما الدخول فليس من السُّنَّة أن يقصد قومًا متربصًا لوقت طعامهم، فيدخلَ عليهم وقت الأكل، ولكن حقّ الداخل إذا لم يتربص واتفق أن صادفهم على طعام ألا يأكل ما لم يُؤذن له.

وأما آداب التقديم فترك التكلف أولاً وتقديم ما حضر، فإن لم يحضره شيء ولم يملك، فلا يستقرض لأجل ذلك فيشوش على نفسه، وإن حضره ما هو محتاج إليه لِقُوْته ولم تسمح نفسه بالتقديم فلا ينبغي أن يقدم. قال بعضهم: ما أُبالي من أتاني من إخواني فإني لا أتكلف له، إنما أقرّب ما عندي، ولو تكلفت له لكرهت مجيئه ومللته. ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم.

ثم إن الزائر ينبغي ألا يقترح ولا يتحكم بشيء بعينه، فربما يشق على المزُوْرِ إحضاره، فإن خيّره أخوه بين طعامين فليختر أيسرهما عليه. وكذلك أن يُشَهِّيَ المزُوْرُ أخاه الزائر ويلتمس منه الاقتراح ثم لا يقول له هل أقدم لك طعامًا؟ بل ينبغي أن يقدم له إن وجد طعام.

والباب الرابع في آداب الضيافة.

وأخيرًا الفصل يأتي بعد الأبواب الثلاثة، فيجمع آدابًا ومناهي طبية وشرعية متفرقة.

* * *

لقد جاء في شعر أحد الصعاليك الجاهليين، وهو الشنفرى عمرو بن مالك الأزدي، هذا البيت الذي ينمُّ على كياسة في الطعام، وقلة النهم والجشع إذا اجتمع هو وصحبه أو غيرهم على طعام:

وإن مُدَّت الأيدي إلى الزادِ لم أكنْ بأعجلِهم إذ أجشعُ القومِ أعجلُ

هذا الخلق النبيل البعيد عن الشره، هو صفة من سجايا ثلة من الأعراب ضاقت بهم حياتهم، وشعروا في أنفسهم ما يتطلبه المثل العالي في السلوك دون

أن يتأثروا بذلك الضيق، بل بقوا أوفياء للسلوك الطيب في الجماعة، حيث لا تطيش الأيدي جوعى على المائدة.

لقد شعر الدين الحنيف بمزايا هذا الشعب الأبيّ المتفتح على الحياة الحرة الراقية، فاستطاع بتعاليمه السديدة أن يجعلهم في أقل من ربع قرن سادة العالم.

عقد الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي مؤلِّف كتاب «صفوة التصوف» في كتابه هذا، فصلاً في الأطعمة جاء فيه، بابُ السنَّة في الابتداء بالملح لشرفه وفضله. وأورد الحديث الشريف: «مَثَلُ أصحابي في أمتي كمثل الملح في الطعام لا يصلح الطعام إلا بالملح». كذلك أورد وصية النبي ﷺ: يا عليّ، ابدأ بالملح واختم بالملح. ولكنه ينتقد الوصية لأن إسنادها إلى جعفر بن محمد الصادق مما لا تقوم به حجة. وورد أيضًا في كتاب عوارف المعارف للسهروردي في الباب الثالث والأربعين في آداب الأكل: فمن ذلك أن يبتدئ بالملح ويختم به: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال لعلي رضي الله عنه: «يا علي ابدأ طعامك بالملح واختم بالملح، فإن الملح شفاء من سبعين داء، منها الجنون والجذام والبرص ووجع البطن ووجع الأضراس».

وكذلك ينوه الغزالي بالملح في كتابه إحياء علوم الدين، الجزء (٢) في القسم الثاني في آداب حالة الآكل:

«... ويأكل باليمنى ويبدأ بالملح ويختم به». ويستخدم الملح في تطييب الطعام وتنكيهه وفي حفظ اللحم والسمك من الفساد. ولقد كان الملح ولايزال مهمًا في حياة الإنسان فهو يحث عصارات المعدة، وهو ضروري لاستحلاب الدهون وهضمها. ثم إن حمض كلور الماء الذي يتشكل منه الملح، يُعين على

هضم اللحوم، وهو يحوي شوارد الصوديوم والكلور وأحيانًا البوتاسيوم، وهي كلها جوهرية لكل وظيفة خلوية تتعلق بضغط الدم وإشارات الأعصاب وأعمال العضلات. ويسبب نقص الملح خسارة الوزن والكسل، وقد يوصل إلى العطالة والغثيان وتشنج العضلات. هذا وإن الإنسان في البلاد الحارة يخسر بالتعرق قسمًا من الملح الذي في جسمه ولابد من تعويضه. وينصح الأطباء في الطعام عدم تناوله خشية ارتفاع الضغط الشرياني، ورَأْيُنا هو الالتزام بالآية القرآنية الكريمة ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١].

ولن يتسع مقال صغير لاستيعاب كل ما جاء من الآداب التي سبقت ما يدعى في العصر الحاضر (إتيكيت الطعام). لقد سبق العرب في اتخاذ قواعد راقية للسلوك في جميع الميادين، ومنها قضية الطعام وآداب الضيافة. فقد زخر تراثنا بأمور لطيفة ورائعة في مكارم الأخلاق كانت قدوة لغيرهم. فمثلاً كان إعلان ألوان الطعام من آداب المائدة. قال أبو الفتح كشاجم: «وخُبّرت أن بعض المتقدمين كان يذكر ما يصنع لإخوانه من الطعام في رقعة ويعرضه عليهم، فمن استطاب لونًا حبس نفسه عليه[٤]، وهذه الرقعة هي المعروفة اليوم باسم menu ويطلق عليها في اللغة الخضض وهي تعني ألوان الطعام. واستعاض عنها بعضهم باستدعاء طهاتهم وسؤالهم أمام الأضياف عمّا عندهم من الألوان، ليحبس كل منهم نفسه وشهوته على ما يختار ويُؤْثر منها.

ومن الآداب أيضًا غسل اليدين قبل الطعام وبعده كما مر آنفًا. لقد سافرت آداب السفرة والطعام مع غيرها من الآداب الاجتماعية إلى أوربة، لتدخل بعض التقدم على حياة أهليها وترفعهم درجات. قال ابن عبد ربه

(4) أدب النديم باريس ١٣٣٠ ص ٣.

الأندلسي: «ومن الأدب أن يبدأ صاحب الطعام بغسل يده قبل الطعام، ثم يقول لجلسائه، من شاء منكم فليغسل؛ فإذا غسل بعد الطعام فليقدمهم ويتأخر، أي يغسل يده بعدهم على خلاف البدء»[٥]. وسنرى فيما يأتي أن بعض الخاصة كانوا إذا انتهوا من الأكل، يغسلون أيديهم بماء الورد وينشفونها بالمناديل الحريرية، كما في موائد الوزير أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات.

مطبخا الوزير ابن الفرات في داره:

جاء في كتاب الوزراء، ويدعى هذا الكتاب أيضًا: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، وهو لأبي الحسن الهلال بن المحسن الصابي: «كان لأبي الحسن ابن الفرات مطبخان في داره، فأما مطبخ الخاصّة الذي يطبخ فيه، فلا أحصي ما كان يدخله من الغنم والحيوان لكثرته. وأما مطبخ العّامة المرسوم بما يُقدّم إلى خلفاء الحُجّاب المقيمين في الدار، ويُغرف منه للرجّالة والبوابين وأصاغر الكُتّاب وغلمان أصحاب الدواوين، فكان يُستعمل فيه في كل يوم تسعون رأسًا من الغنم وثلاثون جديًا، ومِئتا قطعة دجاجًا سمانًا وفراريج مصدّرة، ومِئتا قطعة دُرّاجًا ومِئتا قطعة فراخًا. وهناك خبازون يخبزون الخبز السميذ[٦] ليلاً ونهارًا، وقوم يعملون الحلواء عملاً متصلاً، ودار كبيرة للشراب وفيها مازيان[٧] يحمل فيه الماء المبرّد ويطرح في الثلج كدرًا، ويسقى منه جميع من يريد الشرب، الرجّالة والفرسان والأعوان والخُزّان ومن يجري مجرى هذه الطبقة من الأتباع

(5) العقد الفريد جزء ٢ ص ٤٥٩.

(6) الخبز السميذ: ما كان من الدقيق الأبيض.

(7) المازيان: الأنبوبة ولعلها تشبه الزمزميّة.

والغلمان، ومزمّلات[٨] فيها الماء الشديد البرد. وبرسم خزانة الشرب خدم نظاف، عليهم الثياب الدُبيقية السريّة[٩]، وفي يد كل واحد منهم قدح فيه سكنجبين[١٠] أو جلاب[١١] ومِخْوَض[١٢] وكوز ماء، ومنديل من مناديل الشراب نظيف، فلا يتركون أحدًا ممن يحضر الدار من القواد والخدم السلطانيين والكتَّاب والعمال إلا عرضوا ذلك عليه. وفي جانب الدار أدراجٌ[١٣] كثيرةٌ لأصحاب الحوائج والمتظلمين، حتى لا يلتزم أحد منهم مؤونة لما يبتاعه من ذلك، وأنصاف قراطيس وأثلاث.

صورة عن أصحاب الوزير وولائمه مأخوذة عن كتاب الوزراء أيضًا:

وحدّث أبو القاسم بن زنجي قال: رسم أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات في وزارته الثانية أن يُدعى أبو الحسن موسى بن خلف، وأبو علي محمد بن علي بن مقلة، وأبو الطيّب محمد بن أحمد الكلوذاني، وأبو عبد الله محمد بن صالح، وأبو عبد الله والدي، وأبو بشر عبد الله بن الفرخان النصراني، وأبو الحسين سعيد بن إبراهيم التستري النصراني، وأبو منصور عبد الله بن جبير النصراني، وأبو عمرو سعيد بن الفرخان النصراني، في كل يوم إلى طعامه فكانوا يحضرون مجلسه في وقته ويقعدون من جانبيه وبين يديه، ويُقدّم إلى كل واحد

(8)المزمّلات: الجرار والخوابي جمع مُزمّلة.

(9) السرية: الجيدة.

(10) السكنجبين: من نوع الشراب.

(11) الجلاب: العسل أو السكر يعقد بماء الورد.

(12) المخوض: لعله أداة للغرف.

(13) الأدراج هنا جمع درج: وهو ما يُكتب فيه.

منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء، ثم يجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف، وكل طبق فيه سكين يقطع بها صاحبه ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى، ومعه طست زجاج يرمى فيه التفل، فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفروا(١٤) كفايتهم، شيلت الأطباق وقُدمت الطسوت والأباريق فغسلوا أيديهم، وأُحضرت المائدة مغشّاة بديبقي فوق مكبّة خيازر(١٥) ومن تحتها سفرة أدم(١٦) فاضلة عليها، وحواليها مناديل الغَمَر(١٧) من الثياب المعصور(١٨) فإذا وضعت رفعت المكبة والأغشية، وأخذ القوم في الأكل، وأبو الحسن بن الفرات يحدثهم ويباسطهم ويؤانسهم، ولا يزال على ذلك والألوان توضع وترفع أكثر من ساعتين، ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه، ويغسلون أيديهم والفرّاشون قيام يصبون الماء عليهم، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدُبيقية ورطليات(١٩) ماء الورد لمسح أيديهم وصَبِّه على وجوههم. فمن كانت له من الكتّاب حاجة قام إليه وخاطبه فيها وسأله إياها، ومن أراد إطلاعه على سِرٍّ يجب الانفراد معه فيه، فعل مثل ذلك. ثم أُخرج وظائف(٢٠) الكتّاب وغلمانهم والخُزّان ومن دونهم وسائر من جرت

(14) استوفروا: استوفوا.

(15) الخيازر: جمع خيزرانة فالمكبة مصنوعة من الخيزران.

(16) الأدم: الجلد.

(17) الغمر: الدهن. ويريد بذلك المناديل التي تستعمل ساعة الأكل ((فوط المائدة)).

(18) المعصور: المجفف ولعلها يُراد بها المضغوطة لتكون كالمكوية.

(19) الرطليات: أوان سعة كل منها رطل.

(20) الوظائف هنا المقررات من الطعام وغيره. ووظائف الثلج يوزع الثلج منها في الصيف تخفيفًا لحرارة الجو.

عادته بالوظيفة على طبقاتهم، وأتبع ذلك بتفرقة وظائف الثلج على أصحاب الدواوين والكتّاب والمقيمين في الدار.

صورة أخرى لولائم كان بعض المقتدرين يولمونها للأصدقاء:

جاء في كتاب البخلاء للجاحظ:

من ذلك كلام الجارود بن أبي سبُرة لبلال بن بُردة حين قال له: صف عبد الأعلى وإطعامه قال: يأتيه الخبّاز فيمثل بين يديه فيقول: ما عندك؟ فيقول: عندي جدي كذا وعناق[٢١] كذا وبطة كذا حتى يأتي على جميع ما عنده. قال: وما يدعوه إلى هذا؟ قال: ليقتصر كل امرئ في الأكل حتى إذا أُتي بالذي يشتهي بلغ منه حاجته. قال: ثم ماذا؟ قال: ثم يؤتى بالمائدة فيتسعون ويتضايق ويجدّون ويُعذِّر حتى إذا فتروا خوّى[٢٢] تخوية الظليم[٢٣] وأكل أكل الجائع المقرور.

هذا ومن المعروف أن لكل جماعة مصطلحاتٍ وكلماتٍ خاصة، وضربًا من البيان وكان الجاحظ يتتبع تلك الجماعات وقد قال قبيل سؤال جارود لبلال:

(21) العناق: الأنثى من أولاد المعز قبل استكمالها الحول.

(22) خوّى: التخوية خلو الجوف من الطعام.

(23) الظليم: ذكر النعام.

«وحلاوة حديثهم تدعو إلى الاستكثار منهم، وتدعو إلى إحضار غرائب شهواتهم». ومن الأمثلة التي أوردها الجاحظ قول المديني: «من تصبّح بسبع موزات وبقدح من لبن الأوارك[٢٤] تجشأ بخور الكعبة».

ومن ذلك أيضًا قول الآخر حين دخل على قوم وهم يشربون وعندهم قيان فقالوا: اقترح أيَّ صوتٍ شئت (أي في الغناء) ويبدو أنه كان جائعًا فقال: أقترح نَشِيْشَ مِقْلى.

الجارود الذي ذكره الجاحظ شخصية كبيرة من شخصيات العراق في القرن الأول وأوائل القرن الثاني، أشاد به الجاحظ نفسه فقال: الجارود ابن أبي سبرة ويكنى أبا نوفل، من أبين الناس وأحسنهم حديثًا، فكان راوية علاّمة وشاعرًا مفلقًا وكان من رجال الشيعة. ولما استنطقه الحجاج قال: ما ظننت أن بالعراق مثلَ هذا. وكان يقول: ما أسكتني والٍ قط من إذنه إلا غلبت عليه. وكان من جلساء عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر. وعبد الأعلى هذا أحد من يصفهم الجاحظ بأنه من أبين الناس وأفصحهم، حتى كان مسلمة بن عبد الملك يقول: إني لأنحّي كورَ[٢٥] العمامة عن أذنيّ لأسمع كلام عبد الأعلى.

كلام الرؤساء رؤساء الكلام:

(24) الأوارك: النوق التي رعت نبات الأراك، وهو شجر المسواك وأطيب ما رعته الماشية. ينبت في شبه جزيرة العرب وفي فلسطين. تحمل الأوارك في لبنها من ذلك الشجر نكهة تزيد في طيبه.

(25) كور: كوّر العمامة لفّها.

أبو بحر الضحّاك بن قيس بن معاوية التميمي الملقب بالأحنف (٣ق. هـ - ٦٧ هـ/ ٦١٩م – ٦٨٦م) سيد بني تميم وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، يُضرب به المثل في الحلم. وُلد في البصرة وأدرك النبي ﷺ ولم يره. وفد على عمر حين آلت إليه الخلافة في المدينة، فاستبقاه عمر فمكث عامًا وأذن له فعاد إلى البصرة. فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: «أما بعد فأَدْنِ الأحنف وشاوره واسمع منه إلخ...» . وشهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفّين مع علي. ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه فأغلظ له الأحنف في الجواب، فسئل معاوية عن صبره عليه فقال: هذا الذي إذا غضب غضب له مئة ألف لا يدرون فيما يغضب. وولّي خراسان وكان صديقًا لمصعب بن الزبير أمير العراق، فوفد عليه بالكوفة فتوفي فيها وهو عنده. أخباره كثيرة، خطبه وكلماته متفرقة. قال رجل ليحيى البرمكي أنت والله أحلم من الأحنف بن قيس فقال يحيى: ما يَقْرُبُ علينا من أعطانا فوق حقنا.

وقد استهل ابن قتيبة مؤلِّف كتاب عيون الأخبار، فصل الطعام من ذلك الكتاب الشهير بهذه الملحة: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للأحنف: أي الطعام أحب إليك؟ قال: الزبد والكمأة فقال عمر: ما هما بأحب الأطعمة إليه ولكنه يحب الخصب للمسلمين.

* * *

العصر العباسي عصر الوفرة والثراء والحضارة العجيبة الواسعة. كانت تلك الحضارة كالبحر المحيط المتلاطم الأمواج، تلتقي فيه الدراري وتجتمع فيه الأضداد. ولئن كان الوزير ابن الفرات متوسعًا في كرمه وولائمه توسعًا طوّح به أي تطويح مأساوي ذكره مؤلِّف كتاب «الوزراء»، فقد كان في تلك

الحضارة من يطري مزايا البخل وينوه بالإمساك والتقتير، مثل سهل بن هارون (؟ – ١٧٣ هـ/ ٧٨٩م) وهو أبو عمرو بن راهبون، كاتب بليغ وحكيم من واضعي القصص، يلقب بزرجمهر الإسلام، فارسي الأصل، اشتهر في البصرة واتصل بخدمة المأمون العباسي، وولاه رئاسة خزانة الحكمة ببغداد.

كان يُتهم بالشعوبية وكان الجاحظ معجبًا به قال في وصفه: «ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار سهلُ بن هارون». له كتاب (ثُعْلة وعَفْرة) على نسق كليلة ودمنة ألَّفه للمأمون، وكتاب الإخوان والمسائل، وله رسالة مشهورة في البخل. وعاش في عصره تقريبًا شاعرٌ هجّاء أصله من الكوفة وأقام ببغداد وهو دعبل الخزاعي (١٤٨– ٢٤٦ هـ/ ٧٦٥– ٨٦٠م) لم يرض عن بخل سهل بن هارون الكاتب العظيم، فوصفه وصفًا تناقله الكتّاب وكان دعبل شابًّا حين وصفه. جاء هذا الوصف في الجزء الثالث من كتاب عيون الأخبار ومثله في الجزء الثاني من كتاب الحيوان، ولا نستطيع أن نمر هنا دون أن نعرض ما كتبه الجاحظ نقلاً عن دعبل بعنوان (سهل بن هارون وديكه).

قال دعبل الشاعر: أقمنا عند سهل بن هارون فلم نبرح حتى كدنا نموت من الجوع، فلما اضطررناه قال: يا غلام، ويلك غدّنا! قال: فأتينا بقصعة فيها مرق فيه لحم [فبقي مطرقًا ساعة][٢٦] ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرأس؟ فقال: رميت به قال: ولم رميت به؟ قال: لم أظنك تأكله! قال: ولأي شيء ظننت أني لا آكله؟ فوالله إني لأمقت من يرمي برجليه [فكيف من يرمي برأسه] ثم قال له: لو لم أكره ما صنعت إلا للطّيرة والفأل لكرهته!

(26) الزيادة من عيون الأخبار.

الرأس رئيس وفيه الحواس، ومنه يصدح الديك، ولولا صوتُه ما أريد، وفيه فرقُه الذي يُتبرّك به، وعينُه التي يضرب بها المثل يقال: «شراب كعين الديك» ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم أر عظمًا قط أهشّ تحت الأسنان من عظم رأسه، فهلاّ إذ ظننت أني لا آكله ظننت أن العيال لا يأكلونه؟ وإن كان بلغ من نبلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله. أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق؟ انظر أين هو؟ قال: والله ما أدري أين رميت به! قال: لكني أدري أنك رميت به في بطنك والله حسيبك!

جاء في الحديث الشريف: «إن الله جميل يحب الجمال، سخي يحب السخاء، نظيف يحب النظافة» رقم الحديث ١٧٢٤ في كتاب «فيض القدير» هذا وإن النظافة تزيد في العين مهابة وفي القلب جلالة. وتنظيف الثوب والبدن مطلوب عقلاً وشرعًا وعرفًا. ثم إن نظافة الظاهر قد تُعين على نظافة الباطن. والعرب من أنظف الأمم وهم الذين شرّعوا النظافة في بلادهم ومثلوها أفضل تمثيل في ماضيهم المجيد.

ولابأس أن نتطرق إلى استعمال الملاعق لديهم. معظم الحيوان حين يأكل يأكل بفمه. ومن هبات الله للإنسان أنه جعله يأكل بيده، ثم هداه إلى استعمال أدوات الطعام ومنها الملعقة. كان لأهل همذان خاصةً حذق باتخاذ المرايا والملاعق والمجامر والطبول المذهّبة، التي فاقوا بها وباتخاذها جميع أهل الأرض[٢٧]. ولابن الخيمي المصري المتوفى سنة ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦م مُلغِزًا في الملعقة:

(27) كتاب البلدان لابن الفقيه ليدن ص ٢٥٣.

وممدودةٍ كَيَدِ المجْتَدِي بكفٍّ على ساعدٍ مُسْعدِ
ترى بعضَها في فمي كاللسا ن وجملتها في يدي كاليدِ

كانت الملاعق تصنع من الزجاج المجرود ومن النحاس والفضة والذهب. ولابأس أن نذكر قصة الوزير الحسن بن محمد المهلّبي، فقد كان عزوف النفس، وجد نفسه يأنف من إعادة الملعقة إلى فيه، فقد روى ياقوتٌ في كتابه إرشاد الأريب القصة التالية عنه:

«..... وكان من ظرفه في فعله ونظافته في مأكله، أنه إذا أراد أكل شيء بملعقة كالأرز واللبن وأمثاله، وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجًا مجرودًا، وكان يستعمله كثيرًا فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من جانب الأيسر، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى، حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة إلى فيه ثانية»[٢٨].

وقد يقع في الوليمة ما هو مستهجن أو مضحك، وسرعان ما كان صاحب الوليمة يتلافى ذلك بكياسة واقتدار محكم، حتى إن المهلبي جعل لنفسه مائدتين: إحداهما كبيرة عامة وأخرى لطيفة خاصة كان يؤاكله عليها بعض صحبه المخلصين.

(28) معجم الأدباء لياقوت، الجزء ١٣ ص ١٠٢.

المصادر

١- إحياء علوم الدين، أبو الحامد الغزالي، مصر، المكتبة التجارية الكبرى.

٢- أدب النديم، باريس: ١٣٣٠.

٣- البخلاء، الجاحظ، تحقيق طه الحاجري، القاهرة: دار الكاتب المصري، ١٩٤٨.

٤- صفوة التصوف، (كتاب الأطعمة والأشربة) الحافظ أبو الفضل المقدسي. مصر: مطبعة دار التأليف.

٥- عيون الأخبار، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٣.

٦- فص الخواتم فيما قيل في الولائم، شمس الدين محمد بن علي بن طولون الدمشقي الصالحي، تحقيق نزار أباظة، دمشق: دار الفكر.

٧- فقه اللغة، الإمام أبو منصور الثعالبي، بيروت: المطبعة الكاثوليكية.

٨- كتاب البلدان، ابن الفقيه.

٩- كتاب الطبيخ، محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي، أعاد نشره فخري البارودي مذيل عليه بكتاب معجم المآكل الدمشقية، دار الكتاب الجديد.

١٠- كتاب كنز الفوائد في تنويع الموائد، تحقيق مانويلا مارين وديفيد وانيز، بيروت: ١٤١٣/ ١٩٩٣ النشرات الإسلامية ٤٠ شتوتغارت ألمانيا.

١١- الوزراء أو تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، أبو الحسن الهلال بن المحسن الصابئ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي ١٩٥٨.